الأثر العلمي للأندلسيين بالمغرب الأوسط خلالـــ القرن 7ه/13م
- بجاية وتلمسان نموذجا -

أ. عمارة محمد جامعة سيدي بلعباس.

الملخص

يُعالج هذا المقال التاريخي قضية الدور الذي أداه أعلام المهاجرين الأندلسيين الى المغرب الأوسط خلال القرن السابع الهجري 13م، وبصورة أخص بجاية وتلمسان اللتان احتضنتا – يومئذ – كراسي الملك بين بني حفص وبني عبد الواد.

لقد دفعت أحوال الاندلس المتدهورة وضعف المنافح عنها، وسقوط كبريات عواصمها بيد النصارى، الأندلسيين الى الاختيار بين البقاء والقتل والتنصير، أو بداية حياة جديدة في وطن آخر، غير بعيد بنفس المقومات الطبيعية، وفي ظل السياسة المرحبة للبلاطين، الحفصي والعبد وادي في بجاية وتلمسان.

فلما أمن المهاجرون واستقرت أحوالهم، انطلقت نخبتهم تؤدي دورا مهما في تعزيز بناء الحضارة، ونشر العلم المتنوع في أرجاء المغرب الاوسط خصوصا بجاية وتلمسان. من خلال تنشيط الحركة العلمية ، ووضع بصمتهم في علم الحديث و الكتابة والخط القراءات والطب والتعليم، وهو ما حفظته تراجم كبار أعلامهم كابن سيد الناس وابن السراج وأبي بكر بن خطاب الغافقي وابن الأبار وابن عميرة وغيرهم...

مقدمة:

لقد ظهر تأثير الأندلسيين في الحياة العلمية بالمغرب الأوسط خلال القرن السابع للهجرة 13 م بشكل واضح المعالم؛ من خلال التراجم الوفيرة للعلماء الوافدين الذين تحدثت عنهم بإسهاب وعن آثارهم التي خلفوها من بعدهم في مختلف الجوانب العلمية أصولاً وفروعًا. أولئك الذين أُجبروا على ترك مُدنهم التي سقطت بيد النصارى تباعاً عقب هزيمة العقاب في سنة 609 هـ، فاختاروا بالمقابل الهجرة إلى المغرب الأوسط بصفة نهائية أو مؤقتة إلى حين الانتقال إلى تونس – عاصمة الحفصيين – أو إلى مصر أو الحجاز أو الشام أو غيرها من بلاد الله الواسعة .

ويُلاحظ أن أغلب الوافدين الأندلسيين – وهم من النخبة الممتازة – قد اختاروا إما بجاية وإما تلمسان للاستقرار الدائم أو المؤقت؛ نظراً لكونهما تحتضنان كراسي الملك بالمغرب الأوسط خلال هذه الفترة الزمنية. فغدت كل من بجاية وتلمسان أحد أهم الحواضر التي شهدت توافد الأندلسيين على اختلاف توجهاتهم ووظائفهم وأهدافهم، نظراً لما تمتعتا به من الجانب الطبيعي والحضاري مما وفر الفرصة - أكثر من غيرهما - لأصحاب الكفاءات لتفجير طاقاتهم وإبراز مواهبهم.

وليس الهدف تقديم إحصاء عددي أو تصنيف دقيق للعلماء الأندلسيين، كون أغلبهم موسوعيو الثقافة على تنوع اختصاصاتهم . ولكـن هدف المقال الأول يتمثل في محاولة تلمس أثر النخبة الأندلسية ودورها العلمي. وطبعاً فإن هذه المحاولة بحكم تواضعها، لا تهدف إلى وضع نقطة النهاية على الموضوع بقدر ما ستفتح صفحة من صفحات تاريخ الهجرة الأندلسية في العصر الوسيط، و الباحثون و المؤرخون يدركون جيداً أن كل نتيجة بحث علمي ما هي إلا انطلاقة نحو بحث آخر .

والسؤال المطروح :ما هي أبرز المجالات العلمية التي ظهرت فيها بصمة الأندلسيين المهاجرين؟ وماهي أبرز الإضافات التي حملوها معهم وأدخلوها عليها؟.

إن المصادر التاريخية التي ضمت تراجم أعلام الأندلس استطاعت أن تحفظ لنا كثيرا من الأخبار عن المجالات العلمية التي وضع الوافدون فيها بصمتهم الواضحة على أرض المغرب الأوسط أثناء فترة الدراسة، **ومن أبرزها:**

1 - علم الحديث [1]:

لقد اتجهت همة الناس في الأندلس منذ زمن مبكر إلى دراسة الحديث وهو من العلوم الأولى التي أقبلوا عليها، وبرزوا فيها والدليل على ذلك العدد الهائل للمُحدثين الذين ذكرتهم كتب التراجم [2]. ولما حصلت الهجرة الأندلسية إلى المغرب الأوسط – خصوصا بجاية وتلمسان -، نقل العلماء الأندلسيون معارفهم في الحديث النبوي معهم ليبثوها للطلاب في حلقات التدريس، خاصة وقد عُرف عن هذه النخبة العناية بالرواية عن الأكابر من الشيوخ من خلال تحري الأسانيد العالية والصحيحة. مع ما عُرف عن تضلع أعلام الجالية الأندلسية في تخريج الأحاديث النبوية من أمهات الكتب، وطريقتهم الدقيقة والسهلة في بسط المعلومات على غرار" ابن سيد الناس "الذي كان يعقد الحلقات في بيته وفي الجامع الأعظم ببجاية مُعظم أوقاته، وكانت طريقته في الشـرح والتلقين تُبهر طلابه، حتى أن الغِبْرِيني وصف شخصه وطريقته بكثيرٍ من الإعجاب البالغ.[3]

بل إن الغِبْرِيني ذكر أن" ابن سيد الناس "كان يحفظ عشرة آلاف حديث بأسانيدها ويُذاكر بأضعافها، وأن من كرامات هذا العالم أنه رأى النبي صلى الله عليه وسلم في المنام فمسح على صدره بيده الشريفة، فأخبر أنه لم ينسَ شيئا منذ سمعه[4]. فلم يكن بغريب إذن ! أن يتزاحم طلبة العلم على تلك الحلقات العلمية المهمة في الجوامع وأماكن الدرس.

وممن كان لهم الأثر أيضاً في تطوير هذا العلم الشريف من النخبة الأندلسية **العالمان الكبيران:**

" ابن السَّرَّاج الأندلسي "الذي انتهى إليه العلم بالرواية والأسانيد وتخريج الأحاديث، حتى كان آخر الرواة بالسماع عن أكثر الأكابر من شيوخه، وعُرف عنه الزهد والصلاح كما اشتغل بقية حياته في المغرب الأوسط بالتدريس[5].و"أبو العباس أحمد ابن الغَمَّاز الانصاري البَلَنْسِي الذي اشتغل آخر عمره بالرواية والتصحيح، وله نظم بديع في الزهد[6].

ب - الكتابة و الخط:

لقد توسع تأثير الأندلسيين على الحياة العلمية بالمغرب الأوسط ليشمل فن الكتابة وأساليبها إلى جانب رسم الخط؛ فأما من حيث طرق وأساليب الكتابة فقد أصبح النموذج الأندلسي مثالا يُحتذى به في اختيار الألفاظ واعتماد السجع والأخذ بالمحسنات البديعية، فصارت كتابات الأدباء الأندلسيين أنموذجا لمعاصريهم من علماء المغرب الأوسط وغيره، وأفادتنا المصادر التاريخية بوفرةٍ في المعلومات عن الكثير من الشخصيات الأندلسية التي أثرت الساحة الأدبية خلال فترة الدراسة وأشهرهم **أربعة:**

" أبو بكر محمد بن عبد الله بن خطاب الغَافِقِي "الذي اختار الخروج من بلده" مَرْسِيَة "بالأندلس والهجرة صوب المغرب الأوسط مستوطنا تلمسان، التي اتخذها مسكناً ومأوىً بصفة نهائية[7].

كان أبو بكر هذا فقيهاً شاعراً ناثراً، يتوضح ذلك من خلال الأوصاف التي حلاه بها **مُترجموه**[8]. بل صار قُدوة لغيره في طريقة كتابة ديباجة الرسائل، ونسج الأسلوب الخطابي خاصة وأنه جمع صفات نادرة تنم عن قوة أدبية وعلمية **من مثل:**القوة البلاغية والمقدرة العالية على الترسيل والإجادة النوعية في الكتابة مع حُسنُ شعرٍ.

تلكم الصفات النادرة والكفاءة الكبيرة دفعت أول حكام دولة بني عبد الواد، وهو" يَغْمُرَاسَن "لاستكتابه وجعله صاحب القلم الاعلى في البلاط، وصدر عن الأديب الأندلسي من الرسائل في خطاب "يَغْمُرَاسَن "لخلفاء الموحدين بمراكش وتونس – أي بنو حفص - في عهود بيعاتهم ما تُنوقل وحُفظ[9].

وأما أبو الخطاب عمر بن الحسن بن علي بن دِحْية الكَلْبي الأندلسي النحوي اللغوي المتعدد الفنون؛ فقد هاجر بلده مُتوجهاً نحو المغرب الأوسط ودخل تلمسان واستوطن بجاية مُعلماً بها إلى حين[10]؛ وكان مكوثه مُهمًّا لما حصلت به الفائدة من علمه الواسع وتبحره في الأدب واللغة، من خلال جهوده في التدريس الذي كان ينتهي غالباً بتحلية الطالب للإجازات العلمية في مختلف الفنون لاسيما الأدبية منها، هذا إلى جانب المؤلفات التي أثرى بها الساحة العملية والأدبية كرسائله الأدبية المتبادلة مع الأقران على سبيل المثال. ويؤكد ما تقدم شهادة الغِبْرِيني الذي كان حريصا على الترجمة للأعلام الذين حلّوا أو ارتحلوا من وإلى المغرب الأوسط وبخاصة بجاية. [11]

وكان أبو خطاب الأندلسي إذا كتب اسمه في الإجازات العلمية أو غيرها من رسائله ومُكاتباته، يكتب دَحْية ودِحْية معا تشبها بجَبْريل و جِبْريل، ويذكر ما يزيد عن ثلاث عشرة لغة المذكورة في اسم جبريل[12]، وخلّف ابن دحية من بعده كُتبا كثيرة من بعده [13].

يضاف إلى الشخصيتين السابقتين" :أبو المُطرّف أحمد بن عُمَيْرة المخزومي، وقرينه أبو عبد الله محمد ابن الأبّار."فأما" ابن عميرة "فقد استفادت جموع الدارسين والأقران في المغرب الأوسط من علمه، نظراً لما تمتَّع به من القوة والبراعة الأدبية لاسيما في الجانب الأدبي، خاصة وقد وُصف قبل هجرته نحو المغرب الأوسط بأنه عظيم الأندلس في الكتابة وفي فنون من العلوم[14] . لما حل ابن عميرة بالمغرب الأوسط تصدر التعليم وتدريس مختلف العلوم، وبصفة خاصة الجانب الأدبي واللغوي الذي برع فيه مما أفاد في دفع الحركة العلمية بالمغرب الأوسط يومئذ.

و يشهد لكلامنا المُتقدم هذا ما وصفه به أقران هذا الرجل ومن ترجم لهم من بعدهم ممن عُني بذلك وقد خلَّف ابن عميرة مؤلفات نفيسة [15].

وقرين ابن عميرة هو زميل مهنته في الكتابة والوظائف السلطانية أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر ابن الأبّار القُضاعي البَلَنْسِي، الذي لم يُغادر موطنه الأندلس إلا وقد اشتهر بقوته العلمية وبراعته الأدبية، وكان من نعمة الله تعالى وحُسن تدبيره أن هذا الأديب الأندلسي اختار دخول المغرب الأوسط والنزول ببجاية تحديداً عقب هجرته إثر سقوط بلده بَلَنْسِيَة بيد النصارى. وفي بجاية تفجرت طاقات الرجل وبرزت موهبته العلمية والأدبية، فأقبل الطلبة على مجالسه ودروسه فنالوا من وراء ذلك خيراً كثيراً، واستفادوا من أسلوبه البديع في الكتابة قبل أن تحول مشاغل السياسة بينهم وبينه إلى حين [16].تلك المشاغل السياسية التي تحولت إلى مؤامرات ومشاكل عويصة، هي نفسها التي عادت مرة أخرى بابن الأبّار من تونس العاصمة إلى بجاية في آخر صفر من سنة 646 هـ، و فيها قدم للأدب والتاريخ والسياسة كتابه المهم إعتاب الكتاب. وإن كان الغرض الأول منه استعطاف ولي العهد ليشفع له عند الامير للعفو عنه[17] ، إلا أنه مثل في نفس الوقت موسوعة أدبية وتاريخية قيمة ودقيقة لثلة من كبار الكتاب في الشرق والغرب الإسلامي، الذين صدرت عنهم زلات غفرها لهم ملوكهم وأمراؤهم. و اشتمل الكتاب على خمس وسبعين من التراجم القصيرة والطويلة، وظهر فيه منهج ابن الأبّار بوضوح في التأريخ على طريقة التراجم، وهي الطريقة الغالبة عليه في أكثر مؤلفاته والتي صارت من الأمثلة المُتبعة في هذا النوع من الكتابة.[18]

شد ابن الأبّار الرحال مرة أخرى إلى تونس العاصمة معفواً عنه؛ لكن مشاكل السياسة عادت مرة أخرى بهذا الأديب الأندلسي الفذ إلى بجاية في سنة 650 هـ، ليمكث بها ما يقرب من سبع سنين كرسها للتعليم والتدريس وإفادة الطلاب وكذا المشاركة بفاعلية ونشاط كبير في تنشيط الحركة العلمية والأدبية بالمغرب الأوسط في هذه الفترة فالتف حوله جمع غفير من طلبة العلم يأخذون عنه مختلف العلوم، مساهما من جهة أخرى في إثراء الساحة الأدبية بمؤلفات لا تزال تُعتمد في البحوث التاريخية والأدبية والعلمية، نظرا لقوة أسلوبها وغزارة مادتها بالإضافة إلى دقتها ووضوحها[19] .وعلى ضوء ذلك الانتاج المهم نستطيع أن نصف رحلة ابن الأبّار إلى بجاية بأنها كانت من أخصب فترات حياته العلمية، وهذه الإقامة هي التي أتاحت للغبريني أن يُترجم له ضمن من حل ببجاية من الاعلام ورُبَّ محنة في طياتها منحة، وكان من فضل الله تعالى على المغرب الأوسط وعلى الباحثين في كل العصور أن" ابن

الأبّار "ترك نسخاً من كتبه المتقدمة الذكر في بجاية، فنجت من الدمار والضياع غداة مقتله وإحراق جثته وكتبه .[20]

وأما في جانب **الخط** الذي عده ابن خلدون صناعة شريفة، ومظهرا من مظاهر العمران والحضارة، فقد شهد هو الآخر على التأثير البارز للبصمة الأندلسية فيه، وذلك بالرسم البديع للخط الأندلسي؛ فغدا بذلك مثالاً يُحتذى به بحيث أهمل الرسم المغربي القديم الذي عُرف بخط القيروان، وقد كان فيما مضى هو الغالب على أهل بلاد المغرب عامة[21] .

ولما أقبل الخط الأندلسي عكف على تعلمه الطلبة واعتمده النساخون، نظرا لوضوحه وسهولة الكتابة به .وعرف الخط المغربي طريقه للاندثار على أرض المغرب عموما بأقطاره الثلاثة وهو ما عبر عنه ابن خلدون بقوله :" فغلب خطهم " أي الخط الأندلسي على الخط الإفريقي وعفى عليه، ونسي خط القيروان والمهدية بنسيان عوائدهما وصنائعها وصارت خطوط أهل إفريقية كلها على الرسم الأندلسي بتونس وما إليها لتوفر أهل الأندلس بها عند الجالية من شرق الأندلس. [22]

ج – القراءات [23]:

لما هاجر الأندلسيون إلى المغرب الأوسط خلال القرن السابع الهجري، نقلوا معهم كفاءتهم وتميزهم في القراءات نظراً لكون الأندلس كانت موطناً لكبار علماء هذا العلم[24] .ومن أبرز الشخصيات العلمية التي برزت في هذا المجال على أرض المغرب الأوسط أربعة من **النخبة الأندلسية:**

*أبو عثمان بن سعيد بن زاهر وهو من أهل بَلَنْسِية، كان شيخاً مشهوراً و قارئاً حاذقاً، عارفاً إماماً بالرواية والقراءات وحظ من العربية. واستوطن المغرب الأوسط، وتولى القضاء ببجاية والتدريس والإقراء بجامعها الجُموعُ الكثيرة إلى غاية وفاته، واشتهر بكتابه القراءات.[25]

*أبو العباس أحمد بن محمد الصَّدفي الشاطبي ذي الرواية الواسعة ومعرفة بالقراءات، وعده الغِبْرِيني الأضبط والأتقن عنده.[26] . استوطن المغرب الأوسط وأقبل على تعليم الناس القرآن الكريم حتى صار ذلك شُغله على الدوام، مع عفة عما في أيدي الناس مع عبادة ونُسك[27] . لقد كان تفرغ هذا العالم الأندلسي ايجابيا جدا، إذ تكاثر الطلاب عليه لا سيما مع حُسن خُلقه وتواضعه وطريقة تعليمه الهادفة والدقيقة، والتي كانت تنتهي بحصول الطالب على الإجازة للإقراء رغم تشدد" أبي العباس "وعدم مُسامحته في شيء من أصول القراءة ومختلف وجوهها، وهو ما حرص الغِبْرِيني على تسجيله [28]، يُضاف

إلى ما سلف ما تركه من مؤلفات جليلة للمكتبة العلمية بالمغرب الأوسط، خاصة على مذهب الإمام ورش الذي كان وظل منتشرا في بلاد المغرب عموما مُترافقا مع المذهب المالكي[29].

*أبو عبد الله محمد بن صالح الكِنَاني الشَّاطبي وهو من علماء الأندلس المتضلعين في الحديث والرواية المتسعة .غادر هذا الإمام الأندلسي بلاده ومسقط رأسه شاطبة والتجأ إلى المغرب الأوسط، واستقر به المُقام ببجاية ودرس و خطب بجامعها وانتفع به خلق كثير.كما ولي أبو عبد الله القضاء قُرابة الثلاثين عاما لم يَنُب عنه أحد في منصب الخطابة طوال هذه المدة.[30]

كان الشاطبي عالماً بالقراءات متقناً لها مُجيداً، بل كان أعلى الناس إسناداً بالشاطبية مع معرفة بعلم العربية.[31]

أخبر الغِبْرِيني أن أبا عبد الله الشاطبي، كان ممن كثرت عليه القراءة والرواية ببجاية، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على قوة وكفاءة الرجل العلمية وعلى رواج سوق العلوم عموماً في المغرب الأوسط في هذه الفترة، والتي أنعشها توافد النخب العلمية الأندلسية .[32]

*أبو زكريا يحي اللّقْنَتي الأندلسي وهو الحافظ المحدث الذي كان عارفاً بالأسانيد، هاجر بلده ودخل إلى المغرب الأوسط واستقر ببجاية و بها أقرأ وأسمع[33] .

د - الطب [34]:

لقد عرف أهل الأندلس علم الطب وأوجه العلاج وأنواع الدواء والأدواء منذ الفتح الإسلامي للجزيرة، ومع مرور الوقت ونجاح حركة الترجمة وتشجيع الدول المتعاقبة، انتقل الطب دراسة وممارسة من الأندلس إلى المغرب الأوسط لا سيما في القرن السابع للهجرة الذي يُعد في حقيقة الأمر امتداداً طبيعياً للقرن السادس، والذي مثل ذروة المجد والتطور الأندلسي لعلوم الطب والصيدلة[35] .ثم عرف الطب طريقه نحو بلاد المغرب الأوسط عقب تهاوي حواضر المسلمين في الأندلس، وعجز الموحدين ومن جاء بعدهم عن رد عدوان الممالك النصرانية.

وكان من حظ المغرب الأوسط أن يدخله ضمن أفواج المهاجرين الأطباء والصيادلة، والذين صحبتهم إليه خبراتهم الطويلة ومعارفهم الكثيرة في الطب .وسُرعان ما انفتحت الأبواب لهؤلاء المتضلعين بالطب وفروعه، فراحوا ينشرون أبحاثهم وآراءهم الفريدة بين طلبة المغرب الأوسط من أهله وممن وفد عليه . ويمكن أن نُبرز أهم الإسهامات الأندلسية في جانب الطب **في النقاط التالية:**

-تدريس المفاهيم والنظريات الطبية كان يتم إلى جانب تدريس مختلف العلوم الأخرى، وذلك في ظل موسوعية النخبة الأندلسية التي لم يكن بغريب على أعلامها الاشتهار بأكثر من فن على كثرتها الكاثرة وتنوعها.

-توجه العناية من الأندلسيين في تدريس الطب إلى نُبهاء طلاب المغرب الأوسط.

-الاعتماد على الممارسة وإجراء التجارب الطبية التطبيقية، مع ما يصحب ذلك من معرفة بالأدواء والأمراض وما يُلائمها من الأدوية.

-إثراء جانب التأليف في الأدوية والحشائش الطبية والأمراض المنتشرة.

وقد حفظت لنا المصادر التاريخية، تراجم الشخصيات الطبية الأندلسية التي حلت وارتحلت نحو المغرب الأوسط وأسهمت بشكل فعّال في تطوير هذا الجانب المهم في ازدهار الدول وسمو الحضارة فيها، **ومن هؤلاء الأعلام الأندلسيين:**

*أبو الحسن علي بن موسى بن شَلوط البَلَنْسِي، وهو ممن هاجر بلده واختار دخول المغرب الأوسط واستوطن منه تلمسان مُحترفا الطب.[36]

*أبـو العبـاس أحمد بن خـالـد المالـقِي وهـو مـن المشاركين في الطب، مع معرفة واطلاع في الحكمة و الطبيعيات والإلهيات .دخل أبو العباس إلى المغرب الأوسط واستوطن بجاية إلى وفاتـه؛ وفي بجاية اتخذ من منزله دار للتدريس، وكان الغِبْرِينِي من جُملة من أخذ عنه واستفاد.[37]

*أبو القاسم محمد بن أحمد الأموي المَرْسي المعروف بابن أَنْدراس من أهم الأطباء الأندلسيين المهاجرين إلى المغرب الأوسط، اشتهر بالبراعة في تشخيص الأمراض، والتبسط في البحث فيه، مع مشاركة قيمة في العلوم الأخرى كالعربية وأصول الدين[38] .

لقد خلف هذا الطبيب الأندلسي رجزا نظم فيه بعض الأدوية و استكمله أثناء مُقامه ببجاية، وهي التي وفرت له جميع ظروف العمل والإبداع المُتميز، إذ أن جبلها أَمسِيول الواقع شماليها كانت تنبت في أكنافه جُملة من النبات المنتفع به في صناعة الطب مثل :البرباريس والقنطوريون والراوند والاسفيوس وغير ذلك من الحشائش.[39]

كما قام أبو القاسم إلى جانب ما تقدم بنظم الأدوية المفردة من القانون وكلف تلميذه الغِبْرِينِي بمعاونته في ذلك. [40]

*أحمد بن محمد الجذامي وهو من أهل قرطبة، استوطن سبتة وأقام بإشبيلية قبل سقوطها في يد النصارى [41] .

اشتهر أحمد بمهارته الفائقة في الطب إلى جانب معرفة واسعة بالحديث مع ضبط وإتقان ومشاركة في الأدب، ودخل إلى المغرب الأوسط مُستوطناً بجوار الدولة الزيانية فاستفاد الناس من خبرته ومهارته العالية في الطب من خلال ممارسته إياه وتدريسه للطلاب.[42]

– 2التعليم [43]:

لقد امتد تأثير الأندلسيين ليشمل مختلف مناحي الحياة ومجالات العلوم في المغرب الأوسط .وحيث أن التعليم يُمثل حجر الزاوية في دفع الحركة العلمية وتوسع رقعتها وتعميقها، وترقية المجتمع حضاريا[44]؛ فقد أولى الأندلسيون هذا الميدان عناية فائقة في ظل دعم السلطة السياسية الحاكمة آنذاك. واتسم برنامج التعليم في بلاد المغرب الإسلامي على وجه العموم – قبل أن يحط الأندلسيون رحالهم به - بتقسيم المواد الموجهة للطلبة والتلاميذ **إلى قسمين:**

-القسم الأول: وهي المواد الإجبارية التي لا غنى للطالب عن تعلمها وإتقانها، وهي التي لها علاقة مباشرة بالقرآن الكريم وذلك من ناحية الحفظ وإعرابه وإتقان الهجاء وإتقان معاني الآيات الكريمة والقراءة الحسنة والمنضبطة البعيدة عن التغني والتلحين، والأنسب أن تكون القراءة على حرف نافع[45]. بالإضافة إلى الرسم والشكل الصحيح للنص القرآني.[46]

-القسم الثاني: وهي المواد الاختيارية التي لا يقوم المعلم بإجبار الطالب على تعلمها، مالم يحصل الاتفاق مُسبقا عليها مع ولي الطالب، ومن ذلك **على سبيل المثال :** الحساب الذي يُعد من العلوم الأصولية الضرورية شرعاً، والشعر العفيف الخالي مما هو مُستهجن مُستقبح، ذلك أن الشعر ديوان العرب ومُعجم لغتهم الكبير. وأخبار العرب وأنسابهم وأيامهم، وهو التاريخ المكمل للأدب، بالإضافة الى النحو والغريب والعربية والخط الحسن[47].وكانت الطريقة المُتَّبعة في بلاد المغرب للتعليم قبل دخول الأندلسيين تقوم أساسا على الإلقاء المحض، واستظهار النصوص عن ظهر قلب والتركيز على تعليم علوم القدامى كما تداولتها الأجيال. [48]

ولعل من أبرز عُيوب هذه الطريقة إنكار الجدل والتفكير والمناقشة، فالطلبة المتعلمون مجتمعون سكوت لا ينطقون.واستطاع الأندلسيون عقب هجرتهم أن يُغيروا طريقة التعليم التقليدية، وعوضاً عنها تم -

في نقلة نوعية – إحلال الطريقة الأندلسية محل نظيرتها المغربية التقليدية، في إيصال المعلومة إلى المتلقي تقوم أساساً على إطلاق المجال للعقل في التفكير والتعليل وتحليل الآراء ودراستها ومناقشتها.[49]

وقد عرف ابن خلدون الطريقتين ثم عقد مُقارنة بينهما، أبدى فيها انتصاره لطريقة الأندلسيين مُبرزاً إيجابياتها .بينما انتقد طريقة المغاربة مُوضحاً سلبياتها وجنايتها على التعليم .[50]

وكان للطريقة الأندلسية إيجابياتها في الجُملة على المتعلمين، وذلك بحصول ملكة اللسان العربي " فأفادهم التفنن في التعليم وكثرة رواية الشعر والترسل وممارسة العربية من أول العمر حصول ملكة صاروا بها أعرف في اللسان العربي...فكانوا لذلك أهل خط وأدب بارع أو مقصر على حسب ما يكون التعليم الثاني من بعد تعليم الصبا " .[51]

ولما هاجر الأندلسيون من موطنهم إلى المغرب على وجه العموم بما في ذلك بلاد المغرب الأوسط، انتقلت معهم طريقتهم المتقدمة الذكر في التعليم، فصار المغاربة يُقلدون طريقة التعليم الأندلسية، فيخلطون "في تعليمهم للولدان القرآن بالحديث في الغالب ومدارسة قوانين العلوم وتلقين بعض مسائلها، إلا أن عنايتهم بالقرآن واستظهار الولدان إياه ووقوفهم على اختلاف رواياته وقراءاته أكثر مما سواه وعنايتهم بالخط تبع لذلك "[52] .

وختاما ...لقد كانت الهجرة الأندلسية إلى المغرب الأوسط- خصوصا بجاية وتلمسان - خلال القرن السابع للهجرة 13 م ظاهرة مميزة بمختلف الأشكال التي اتخذتها، نظراً لأهميتها في ميادين الحضارة المتعددة لا سيما الثقافية والعلمية منها في فترة الدراسة، التي تُعد من أخصب وأزهى الفترات التي مر بها المغرب الأوسط. ولعل من أبرز النتائج والتوصيات والملاحظات المهمة التي وصلتُ إليها **ما يلي:**

-شكلت هزيمة العقاب نقطة تحول نهائية وأخيرة في الصراع الإسلامي النصراني في الأندلس، بحيث مالت كفة القوة إلى جانب النصارى وتحطمت هيبة الموحدين والمسلمين عموما في ظل الخسائر المهولة في العدة والعتاد.

-لم تكن مملكتا بني حفص وبني عبد الواد اللتان اقتسمتا إرث الدولة الموحدية على أرض المغرب الأوسط، بالقوة المرجوة والممكنة للمحافظة على بلاد الأندلس أو إنقاذها، فعمدتا إلى تشجيع الهجرة الأندلسية إلى أراضيها، من خلال قرارات سياسية حاسمة وجريئة، وذلك في خِضم منافسة محمومة للاستفادة من خبرات الوافدين وحنكتهم وما حملوه معهم من أساليب الحضارة والعلوم والأدب والطب والتعليم.

-شجعت المقومات الطبيعية للمغرب الأوسط من قرب المسافة مع العدوة الأندلسية، بالإضافة إلى تشابه المناخ على اختيار الأندلسيين الهجرة إليه واتخاذه مقراً أو مستقراً.

-استقرار الأندلسيين في المغرب الأوسط ارتبط بالحواضر الكبرى فيه التي احتضنت كراسي الملك على غرار بجاية الحفصية وتلمسان العبد وادية، كما ساهمت عقلية المجتمع في المغرب الأوسط المجبولة على حب الوافد الغريب على حساب المحلي، على ازدهار مكانة العنصر الأندلسي على حساب نظيره المغربي.

-ساهم الأندلسيون بشكل لافت في دفع عجلة العلوم والآداب وتنشيط حركة التأليف في المغرب الأوسط.

-استطاع الأندلسيون تطوير التعليم بتطوير أساليبه ونُظمه، تلك التي عبرت معهم البحر إلى المغرب الأوسط.

فبفضل الله تعالى ثم بفضل هؤلاء العُلماء الأندلسيين الأفذاذ، أصبحت بلاد المغرب الأوسط مركز إشعاعٍ علميٍ بحق، وصارت مقصداً للدارسين والمدرسين على حد السواء وانتشار العلوم المتنوعة، والتي عرفت بدورها الطريق نحو المشرق والمغرب انطلاقا من بجاية وتلمسان على وجه الخصوص؛ وما أكثر الأندلسيين الذين وصلوا إلى مصر والحجاز والشام وغيرها ليحظوا هناك بالمراتب العالية، وقد كان أكثر انطلاقهم وانبعاث رحلاتهم من سواحل المغرب الأوسط. وكان لهذه الحيوية العلمية الأندلسية وبيئة المغرب الأوسط المتهيئة للاستقبال والتلقي، أعظم الأثر على ازدهار الحياة الثقافية والفكرية في هذا الاقليم المترامي الأطراف خلال القرن السابع الهجري، بل وسيمتد ذلك الإشعاع إلى حقب زمنية غير قصيرة.

الهوامش:

1 - محمد عجاج الخطيب، الوجيز في علوم الحديث ونصوصه، موفم، الجزائر، 1989 م، ص ص 3 – 34.

2 - بوداعة نجادي، " علم الحديث و رواده بالأندلس خلال القرن السادس والسابع الهجري" ،مجلة الحضارة الإسلامية، العدد16 ،منشورات كلية العلوم الانسانية والحضارة الإسلامية، جمادى الثانية 1433هـ - ماي 2012 م، ص ص 230 – 239.

3 - أبو العباس أحمد بن احمد بن عبد الله الغِبْرِيني، عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تحقيق، عادل نويهض، منشورات دار الافاق الجديدة، بيروت، لبنان، ص 294.

4 - المصدر السابق نفسه، ص ص 294 – 295.

5- المصدر السابق نفسه، ص ص204 – 202 ، أبو عبد الله محمد الاوسي ابن عبد الملك ، الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، س - 1 ق1 ،تحقيق، محمد بن شريفة، دار الثقافة، بيروت، ص ص371 – 369 .

6 - الغِبْرِيني، مصدر سابق، ص 322.

7 - أبو زكريا يحي بن محمد الحضرمي الإشبيلي ابن خلدون، بُغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، تحقيق، عبد الحميد حاجيات، المكتبة الوطنية، الجزائر،1980 – 1400، ج1 ،ص129 ،ابن عبد الملك المراكشي، مصدر سابق، س6 ، ص332 ، لسان الدين السلماني الغرناطي ابن الخطيب، الاحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق، محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الثانية، 1393هـ 1973 - م، مج2 ، ص426 ، محمد بن عبد الله بن عبد الجليل التلمساني التِّنِسِي، تاريخ بني زيان ملوك تلمسان، مقتطف من نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان، تحقيق، محمود بوعياد، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر،1985 – 1405 ، ص128 – 127 ،محمد الطمار، تاريخ الأدب الجزائري، تقديم، عبد الجليل مرتاض، ديوان المطبوعات الجامعية، الطبعة الثانية، 2010 ص 198.

8 - ابن الخطيب، الاحاطة، ج 2 ، ص 427 – 426 ، يحي ابن خلدون، مصدر سابق، ج1 ، ص 129، التِّنِسِي، مصدر سابق، ص 127 – 128.

9 - ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون المسمى ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الاكبر، مراجعة سهيل زكار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 1421 هـ2000 -م، ج7 ، ص106 ، راجع عن انتاج أبي بكر ، ابن الخطيب، الاحاطة، ج2 ، ص ص433 – 428 ، أبو عبد الله محمد بن محمد بن علي العبدري، رحلة العبدري، تحقيق، علي ابراهيم الكردي، دار سعد الدين للطباعة والنشر، دمشق، الطبعة الثانية، 1426هـ 2005 / م، ص ص73 - 66 ، أحمد عزاوي، المغرب والأندلس في القرن السابع 13 / م، دراسة وتحقيق لديوانيات كتاب فصل الخطاب في ترسيل أبي بكر ابن خطاب، جمعية الحسن الوزان للمعرفة التاريخية، القنيطرة،2008 ، ص ص 162 – 20.

10 - الغِبْرِيني، مصدر سابق، 270 – 269 .

11 - المصدر السابق نفسه، ص270.

12 - المصدر السابق نفسه، ص271 – 270 .

13 - المصدر السابق نفسه، ص272 – 271 .

14 - أبو العباس أحمد القرشي التلمساني المقري، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق، احسان عباس، دار صادر، بيروت، 1408هـ 1988 - م ، ج2 ، ص104 .

15 - أبو الحسن علي بن موسى الأندلسي ابن سعيد، المغرب في حُلى المغرب، تحقيق، شوقي ضيف، دار المعارف، الطبعة الرابعة،1955 - 1953 ،ج2 ، ص363 ، راجع وصف اقرانه له ،محمد بن عبد الله القضاعي ابن الأبّار، المقتضب من كتاب تحفة القادم، تحقيق، ابراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري، القاهرة، الطبعة الثالثة، 1410 هـ 1989 - م، ص ص 197 - 202، ابن عبد الملك، مصدر سابق، س – 1 ق1 ، ص ص 150 - 152، يُراجع عن انتاج ابن عميرة، أحمد عزاوي، رسائل ابن عميرة الديوانية القرن السابع الهجري ، ص ص 10 - 135 ، ابن الخطيب ، الاحاطة، ج1 ،ص ص 174 - 178، الغِبْرِيني، مصدر سابق، ص ص 298 - 301، ابن عبد الملك المراكشي، مصدر سابق، س – 1 ق1 ،يُنظر عن بعض رسائله المبثوثة ، أبو محمد عبد الله بن محمد بن أحمد التجاني، رحلة التجاني، قدم لها، حسن حسني عبد الوهاب، الدار العربية للكتاب، ليبيا،1981 ،ص ص 90 - 93، محمد بن عبد المنعم الصنهاجي الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق احسان عباس، مكتبة لبنان، الطبعة الثانية1984 ، سابق، ص ص 97 -100، الطاهر توات، مرجع سابق، ج1،

ص ص 121 - 127، أبو المطرف أحمد بن عميرة المخزومي، تاريخ ميورقة، دراسة وتحقيق، محمد بن معمر، دار الأديب، وهران، د ت، مقدمة التحقيق، ص ص 12 - 17.

16 - الغِبْرِيني، مصدر سابق، ص 311 ،ابن خلدون، مصدر سابق، ج6 ، ص 417 - 418، ابن الأبّار، الحلة السيراء، تحقيق حسين مؤنس، دار المعارف، الطبعة الثانية1985 – ، ج1 ، مقدمة التحقيق، ص39 ، أحمد بن الحسن القسنطيني ابن قنفذ، الوفيات، تحقيق عادل نويهض، ط4 ، دار الأفاق الجديدة، بيروت،1983 – 1403 ، ص 324 - 325، الهامش 1 ، ابن الأبّار، المقتضب من كتاب تحفة القادم، مقدمة التحقيق، ص 18 - 19، جمعة شيخة، مجلة دراسات أندلسية،العدد2، خاص بابن الأبّار، مطبعة المغاربية للطباعة والنشر والاشهار، تونس، 1409 هـ 1989 / م، ص119 .

17 - ابن الأبّار، ديوان ابن الأبّار، قراءة وتعليق، عبد السلام هراس، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، 1420 هـ 1999 - م، ص 138 ،و صص 178 – 182، و ص ص 248 - 254،و ص269 – 268 ،و ص ص 271 - 274، وص 286 - 287،وص 364 - 367 ، و ص ص 420 - 422، ابن سعيد، مصدر سابق، ج 2 ، ص ص 309 - 312، ابن الأبّار، المقتضب من كتاب تحفة القادم، مقدمة التحقيق، ص 19 ،المقري، مرجع سابق، ج2 ، ص590 ، الحلة السيراء، مقدمة التحقيق، ص ص 39 - 42، ابن الأبّار، اعتاب الكتاب، تحقيق، صالح الأشتر، الطبعة الأولى،1380 هـ1961- م، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، مقدمة التحقيق، ص ص 13 - 15.

18 - ابن الأبّار، اعتاب الكتاب، مقدمة التحقيق، ص26 .

19 - ككتابه التكملة لكتاب الصلة المصدر السابق، ص 21 -22.

20 –ابن الأبار، الحلة السيراء، مقدمة التحقيق، ص43 ، ولمزيد التفصيل والفائدة عن انتاج ابن الأبّار بين المطبوع و المخطوط، راجع: ابن الأبّار، اعتاب الكتاب، مقدمة التحقيق، ص ص 19 - 23.

21 - محمد المغراوي، الخط المغربي عند ابن خلدون، الذخائر، عدد خاص، الخط والمخطوط العربي، العدد التاسع، السنة الثالثة، شتاء 1422 هـ 2002 / م، ص ص 57 - 62،و راجع أيضاً، عمر أفا ومحمد المغراوي، الخط المغربي تاريخ وواقع وآفاق، منشورات وزارة الاوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، الطبعة الأولى، 1428 هـ 2007 / م، ص ص 35 – 39.

22 - ابن خلدون، المقدمة، دار الفكر، بيروت،2002 – 1422 ، ص390 .

23 - المصدر السابق، ص 407.

24 - كمجاهد وأبي عمرو الداني والشاطبي وغيرهم، ابن خلدون، المقدمة، ص 407 - 408، وانظر أيضاً، حسن ابراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي و الاجتماعي، ج2 ،دار الجيل، لبنان، الطبعة الخامسة عشر، 1422 هـ2001 - ، ص265 - 266،المرجع السابق نفسه، ج4 ، ص ص 416 - 418.

25 - الغِبْرِيني، مصدر سابق، ص 289 - 290، شمس الدين أبي الخير محمد بن محمد بن محمد بن علي ابن الجزري الدمشقي الشافعي، غاية النهاية في طبقات القُراء، اعتنى به، ج . برجستراسر، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 2006 م،ج1، ص275 ، و ص 279.

26 - الغِبْرِيني، مصدر سابق، ص ص 85 -91.

27 - المصدر السابق، ص 86.

28 - المصدر السابق، ص 86.

29 - المصدر السابق، ص 86.

30 - المصدر السابق ، ص ص 79 - 83.

31 - ابن الجزري، مصدر سابق،ج2، ص137.

32 - الغِبْرِيني، مصدر سابق، ص 79 – 80، وانظر وصف العبدري له: العبدري، مصدر سابق، ص ص92 – 84 .

33 - الغِبْرِيني، مصدر سابق، ص 260 – 261.

34 - ابن خلدون، المقدمة، ص476 ، و ص ص 384 - 386.

35 - راجع عن دخول الطب إلى الأندلس وعوامل ازدهاره وطرق ممارسته وأنواع الأمراض والأدوية : زرهوني نور الدين، الطب والخدمات الطبية في الأندلس خلال القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي، رسالة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الإسلامي، اشراف، بن نعمية عبد المجيد، كلية العلوم الانسانية والحضارة الإسلامية، قسم التاريخ وعلم الآثار، جامعة وهران، السنة الجامعية، 1422 1423 –هـ 2002 – 2001 / م.

36 - شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير و الاعلام، تحقيق، بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، 1424 هـ 2003 - م،

مج13 ، حوادث 630 – 601 هـ ، ص 245 ،محمد العربي الخطابي، الطب والأطباء في الأندلس الإسلامية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، دت، ج1 ، ص67.

37 - الغِبْرِيني، مصدر سابق، ص 73 - 74، محمد الطمار، تاريخ الأدب الجزائري، ص197 .

38 - الغِبْرِيني، مصدر سابق ، ص75 - 76، الخطابي، مرجع سابق، ج1 ، ص29 ، ابن عبد الملك، مصدر سابق، س6 ، ص64 .

39 - الحميري، مصدر سابق، ص 80 - 81.

40 - الغِبْرِيني، مصدر سابق، ص76 .

41 - الخطابي، مرجع سابق، ج1 ،29 .

42 - ابن الأبّار، التكملة لكتاب الصلة، تعليق، ابن أبي شنب و ألفريد بل، المطبعة الشرقية، الجزائر، 1337هـ 1919 - م، ص158 ،فرح سعد، الحياة الثقافية في الدولة الزيانية على عهد يغمراسن سنة 633هـ 681 - هـ 1231 / م 1280 – م، اشراف، دحو فغرور، بمساعدة، سلطاني الجيلالي، مذكرة تخرج لنيل شهادة ماجستير في التاريخ والحضارة الإسلامية، قسم الحضارة الإسلامية، كلية العلوم الانسانية والحضارة الإسلامية، جامعة وهران، السنة الجامعية،2002 – 2001 ، ص99 .

43 - ابن خلدون، المقدمة، ص 401.

44 - عبد العزيز فيلالي، تلمسان في العهد الزياني، دراسة سياسية ،عمرانية ،اجتماعية، ثقافية، موفم للنشر، الجزائر،2007 ، ج2 ، ص338 .

45 - راجع الحكم الشرعي في مسألة القراءة بالألحان، ابن خلدون، المقدمة، ص396 .

46 - محمد بن سحنون، كتاب آداب المعلمين، مراجعة وتعليق، محمد العروسي المطوي، دار الكتب الشرقية، تونس،1972 / 1392، ص 42 - 43.

47 - سحنون ،مصدر سابق ، ص44 .

48 - جمعة شيخة، مرجع سابق، ص24 .

49 - الغِبْرِيني، مصدر سابق، ص 293 - 294.

50 - ابن خلدون، المقدمة، ص 539 – 540.

51 - المصدر السابق، ص 540 - 541.

52 - المصدر السابق نفسه، ص540 ، فيلالي، مرجع سابق، ج2 ، ص338 ، اسماعيل سامعي، " حركة التعليم في المغرب الإسلامي إبان القرنين 3 و 4 هـ 11 – 10 / م" ،مجلة الآداب والعلوم الإنسانية،جامعة الأمير عبد القادر الإسلامية، قسنطينة، العدد الأول، محرم / 1423 أبريل2002 ، ص ص 91 -112.